آليات الحجاج البلاغي في الرد على بعض ادعاءات أهل الكتاب في القرآن الكريم

The Mechanisms of Rhetorical Argumentation in Responding to Certain Claims of the People of the Book.

د. حصة بنت سعود الهزاني
أستاذ البلاغة والنقد المشارك، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية التربية،
جامعة الأمير سطام بن عبدالعزيز، المملكة العربية السعودية.
https://orcid.org/0009-0008-6213-6452

Dr. Hessh Saud Alhazzani
Associate Professor of Rhetoric and Criticism, Department of Arabic language and literature,
College of Education, Prince Sattam bin Abdulaziz University, Kingdom of Saudi Arabia.

(تاريخ الاستلام: 2025/09/08، تاريخ القبول: 2025/11/13، تاريخ النشر: 2025/12/15)

المستخلص

يُعدّ الحجاج أداةً بلاغية محورية في إقناع المتلقّي والتأثير في مواقفه وآرائه، إذ يقوم على تقديم الحجج والبراهين وفق تدرّج منطقي يُعرف بـ «السُّلَّم الحِجَاجي»، الذي يُرتّب الحجج بحسب قوتها وضعفها، مما يمنح الخطاب الحجاجي طابعه الإقناعي المميز. وانطلاقًا من أن أهل الكتاب اشتهروا بصفات وأخلاق مذمومة وادعاءات باطلة، فقد تصدى القرآن الكريم لهذه الادعاءات بالحجج الداحضة والبراهين القاطعة التي تكشف زيفها وتفنّدها. ومن هنا جاءت هذه الدراسة لتكشف عن آليات الحجاج البلاغي في الرد على بعض ادعاءات أهل الكتاب، من خلال اختيار نماذج دالة من تلك الادعاءات بالتحليل والوصف، دون قصد الحصر، بالاعتماد على جملة من آيات القرآن الكريم واستنطاق دلالاتها الحجاجية في ضوء عدد من كتب التفسير والمراجع المتخصصة ذات الصلة بموضوع البحث.

الكلمات المفتاحية: بلاغة، الحجاج، ادعاءات، أهل الكتاب.

Abstract

Argumentation is considered a pivotal rhetorical tool for persuading the audience and influencing their attitudes and opinions. It is based on presenting evidence and proofs according to a logical progression known as the «argumentative hierarchy,» which organizes arguments according to their strength and weakness, thereby granting argumentative discourse its distinctive persuasive character. Given that the People of the Book were known for reprehensible traits and false claims, the Qur'an confronted these claims with refuting arguments and decisive proofs that expose their falsehood and invalidate them. Accordingly, this study seeks to explore the rhetorical argumentative mechanisms employed in responding to some of the claims of the People of the Book, by selecting representative examples of such claims for descriptive and analytical examination, without aiming for exhaustive coverage, and drawing upon a set of Qur'anic verses and interpreting their argumentative dimensions in light of several exegetical works and specialized references related to the subject of the study.

Keywords: Rhetori, Argumentation, Claims, People of the Book.

للاستشهاد: الهزاني، حصة بنت سعود. (2026). آليات الحجاج البلاغي في الرد على بعض ادعاءات أهل الكتاب في القرآن الكريم. *مجلة العلوم الإنسانية بجامعة حائل*، 02 (29)، ص185 – ص193.

التمويل: لا يوجد تمويل لهذا البحث

Funding: There is no funding for this research

المقدمة

الحجاج له حضور مهم في العملية التواصلية بين الأطراف المتشاركة في مناقشة الأفكار، فهو آلية من آليات الخطاب الذي يهدف إلى التأثير والإقناع للمتلقي، فنظرية الحجاج من أهم النظريات اللغوية التي تهتم بدراسة تقنيات الخطاب والاستراتيجيات التي يستخدمها المتحدث لإقناع الطرف الآخر بوجهة نظره، وهذه التقنيات تؤدي دورا مهمًا في تشكيل الخطاب اللغوي وتأثيره في المتلقي، ويُعَدُّ الحِجاج البلاغي من أهم الوسائل التي يعتمدها الخطاب في التأثير في المتلقي وإقناعه بوجهة نظر معينة، حيث يقوم على تقديم الحجج وترتيبها بشكل منطقي متدرج، يعكس قوة الدليل وأثره في إقناع المخاطَب. وقد أولت الدراسات البلاغية اهتمامًا كبيرًا بالحِجاج بوصفه آلية خطابية تُستخدم في مجالات متعددة، مما يُبرز دوره في تعزيز قوة الحجة وتحقيق الإقناع.

من هنا تكمن أهمية موضوع (آليات الحجاج البلاغي في الرد على بعض ادعاءات أهل الكتاب) وأسباب اختياره في ضرورة فهم منهج القرآن في الحوار والجدل، فالقرآن الكريم يقدم نموذجًا للحوار مع أهل الكتاب، ويعتمد هذا النموذج على الحجة والمنطق؛ مما يبرز أهمية التأسيس للحوار القائم على العقل والإقناع، كما في هذا النموذج إظهار لحكمة الخطاب القرآني؛ فالخطاب في القرآن الكريم خطاب متنوع متعدد فهو تارة لأهل الكتاب جميعا ، وطورا يكون للنصارى فقط، وثالثة يكون لليهود فقط، ورابعة للذين آمنوا، وهذا كله يؤكد أن حوار الأديان في القرآن له مشروعيته (فرد، 2014، ص. 11)؛ لأن دراسة مثل هذه الأساليب توضح كيف استخدم القرآن الكريم الحجج المناسبة لكل موقف، وهو ما يعكس عمق الحكمة الإلهية في اختيار الأسلوب الأمثل لتحقيق الهدف الدعوي، وفي هذا الأسلوب تعزيز للفهم التاريخي والديني، فالقرآن يتناول مواقف أهل الكتاب السابقة مع أنبيائهم؛ مما يساعد على فهم السياق التاريخي للعلاقات بين المسلمين وأهل الكتاب، ويعمق إدراك القضايا الدينية المشتركة والمختلفة، وفيه أيضًا تعليم لأسس الجدال الحسن، فدراسة الأساليب القرآنية تسهم في تعليم المسلمين كيفية تقديم الحجج بطريقة بناءة، بعيدًا عن التعصب أو التجريح، فضلا عن أن القرآن الكريم يقدم إجابات عن الكثير من القضايا التي أثيرت من أهل الكتاب آنذاك، وهو ما يظل مصدر إلهام للرد على الشبهات المعاصرة بطريقة علمية ومنهجية.

وخلاصة الأمر أن دراسة هذه الأساليب ليست مجرد تحليل للخطاب الديني فقط، بل هي أيضًا وسيلة لفهم كيفية بناء خطاب دعوي فعال، يراعي السياق التاريخي والإنساني ويتسم بالعمق والحكمة. لذا جاء هذا البحث الذي يسعى إلى دراسة كيفية بناء الحجج القرآنية وترتيبها، وتأثير هذا الترتيب في تقوية الحجة وإقناع المتلقي والوقوف على آليات الحجاج في دحض أقوال أهل الكتاب، كونها صادرة من قوم عُرف عنهم جدال المسلمين والكيد لهم.

أهداف البحث

يهدف هذا البحث إلى:

- بيان أهمية أسلوب الحجاج في القرآن الكريم، والكشف عن وظيفته في دحض ادعاءات أهل الكتاب.
- تحقيق فهم أعمق للنص القرآني وإظهار جوانب متعددة من إعجازه البلاغي.
- إثراء البلاغة القرآنية من خلال تسليط الضوء على موضوع يجمع بين البلاغة والدعوة.
- استجلاء الطرق التي استخدمها القرآن الكريم في تفنيد ادعاءات أهل الكتاب بطريقة عقلانية منطقية مع الحفاظ على الأسلوب البلاغي الراقي.
- تسليط الضوء على كيفية ارتباط الجدل العقلي بالأسلوب البلاغي لإيصال الرسالة بشكل أكثر تأثيرًا وإقناعًا.

وعلى الرغم من تعدد الدراسات التي تناولت الحِجاج في القرآن، فإنه — على حد علم الباحثة – لم أطلع موضوع تناول تحليل بلاغة الحِجاج في الرد على ادعاءات أهل الكتاب على وجه الخصوص، وهو ما يحاول هذا البحث معالجته من خلال تقديم رؤية تحليلية متعمقة للخطاب الحِجاجي القرآني في هذا السياق.

منهج البحث

يعتمد هذا البحث على المنهج الانتقائي التحليلي حيث يقوم على انتقاء و تحليل مجموعة من الآيات القرآنية التي تناولت ادعاءات أهل الكتاب، ودراسة آليات الحجاج فيها ، مع الرجوع إلى كتب التفسير والبلاغة، والاستفادة من الدراسات الحديثة حول الحِجاج، ويرتكز التحليل على دراسة كيفية بناء الحجج وترتيبها، ومدى تأثير هذا الترتيب في قوة الإقناع والتأثير في المتلقي، وقد جاءت خطة البحث في مقدمة وفيها حديث مختصر عن مفهوم الحجاج، وفي المطلب الأول تناولت الحجاج في الدراسات الغربية، واستعرضت في المطلب الثاني الحجاج في الدراسات العربية، وفي المطلب الثالث تناولت بلاغة الحجاج في الرد على ادعاءات أهل الكتاب من خلال تحليل لبعض الآيات القرآنية، وختمت البحث بخاتمة تحوي أهم النتائج.

مدخل

إن طبيعة الأديان السماوية تسعى إلى صنع الإنسان في جوانبه المختلفة وتهديه إلى طريق الحق، فحاجة الإنسان إلى الدين هي غريزة فُطر عليها؛ لأن الإنسان بحاجة إلى معرفة موقعه في الحياة والغاية من خلقه ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 30].

إن فهم الإنسان لذاته ووعيه بواجباته وحقوقه في مسيرته الحياتية والتزامه بالتعاليم التي يفرضها عليه دينه يقود إلى بناء مجتمع مثالي حي

متكامل يتحقق فيه السلام والمساواة والعدل من خلال الإيمان بالله والعمل الصالح، فأرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[النساء: 165] ، ليبلغوا رسالات ربهم ويرشدوا البشرية إلى منهج الحياة الصحيح ، إضافة إلى إقامة الحجة عليهم يوم القيامة كما قال تعالى:﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: 157]، إلا أن ما طرأ على دين أهل الكتاب (اليهود والنصارى) من تحريف وتغيير وتبديل عبر الأزمان أدى إلى نسخ تلك الأديان (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران : 85] ، ذلك أن الدين الحق هو ما شرعه الله سبحانه دون أي زيادة أو نقص من البشر، وفي هذا تأكيد على أن أهل الكتاب لن ينجوا في الآخرة إلا باتباع الإسلام، وردّ على قولهم: نحن على ملة إبراهيم فنحن ناجون على كل حال، والمعنى أن من يبتغ غير الإسلام بعد مجيئه فلن يقبل منه.

ومع أن تلك الأديان نسخت؛ فإن الخالق – جل وعلا – يحث على مجادلة أهل الكتاب بالأحسن كما قال تعالى:﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: 46]، وهذه إشارة إلى أهمية معرفة تلك الأديان وجدال أهلها ومحاورتهم لإقامة الحجة عليهم بأن الإسلام هو دين الحق الذي لم يُحرّف كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران : 19]، «لقد خاطب الله في القرآن الكريم أسمى وأرقى ما في الإنسان، وهو عقله وقلبه، وأقام عليه الحجة بمنطق عقلي هادئ وتفكير منطقي مقنع، ويبقى هذا المنطق مؤثرا في الإنسان حتى قيام الساعة» (الخالدي، 2004، ص.44).

المطلب الأول: الحجاج في الدراسات الغربية:

يرتبط مفهوم الحجاج منذ نشأته بالدليل والحجة التي تجعل العقول تذعن لما يطرح عليها من آراء وأفكار، وأنجع الحجاج ما يؤثر في السامعين ويبعثهم على الإنجاز، وقد عرف بيرلمان الحجاج بقوله: «دراسة تقنيات الحجاج التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة التسليم» (الحجاج، 2004، ص. 244)، فالهدف من الحجاج عند بيرلمان هو الإقناع واستمالة المتلقي للتأثير فيه، وهذا يعني أن الحجاج عملية تواصلية تستلزم وجود مرسل ورسالة ومتلقٍ، وقد ركز على مبدأين رئيسين، وهما القصد والمقام، ولا يعتمد الحجاج عنده على العنف أو التضليل أو التوهيم، بل غرضه هو بناء الحقيقة عن طريق الحوار البناء والاستدلال (الفراء، 1955، ص. 28) ، أما ديكرو وأنسكومبر؛ فالحجاج عندهما لغوي لساني، فكل كلام حجاجي بطبعه؛ إذ إن اللغة في جوهرها حجاجية فالتداولية المدمجة (الحباشة، 2008، ص. 20)، هي التي تؤطر تصور ديكرو وانسكومبر لنظرية لسانية تدرس الحجاج في اللغة بوصفه ظاهرة لغوية (بو سلاح، 2024، ص. 22)، فاللغة تكمن قيمتها في الاستعمال حيث إن داخل اللغة طاقات يجب أن يوظفها المتكلم لتوجيه المتلقي، إذ إن القيمة الحجاجية للمقول لا تنتج فقط من المعلومات التي يحملها، وإنما من خلال صيغ أسلوبية لإسناد الوجهة الحجاجية للمقول، فالسمة الحجاجية للمقول تتنوع بحسب السياق (طروس، 2005، ص.95)، فالحجاج عندهما يكمن في أن الكلام يحتوي على ملفوظين على الأقل، بينهما علاقة، أحدهما يؤسس حجة والآخر يؤسس نتيجة، وقد استفاد ديكرو وانسكومبر في بناء نظرية الحجاج من نظرية أفعال الكلام التي أسسها أوستين وسورول، التي تعني أن اللغة لا تستخدم لنقل المعلومات فقط، أو التعبير عن الأفكار، بل يمكن استخدامها للقيام بأفعال معينة، وترتيب الحجج عند ديكرو يجب أن يكون وفق سلم حجاجي – السلم الحجاجي هو علاقة ترتيبية للحجج المنتمية إلى فئة حجاجية واحدة بحسب القوة الحجاجية لكل حجة، ومعلوم أن الحجج اللغوية متفاوتة في قوتها الحجاجية، فهناك الأقوى والأضعف– (أزفالد، 2020، ص. 19)، فعلى المتكلم أن ينظم هذه الحجج ، فالحجة الأعلى تتضمن الحجج الأصغر، هذه الحجج الترتيبية في السلم تسمى بالفئة الحجاجية، وهي مجموعة من الحجج تؤدي نتيجة « معينة (أزفالد، 2020، ص.19)، والحجة قد تكون ظاهرة أو مضمرة بحسب السياق، والشيء نفسه بالنسبة للنتيجة والرابط الحجاجي الذي يربط بينهما «(العزاوي، 2016، ص. 18).

أما ميشيل مايير فنظرية الحجاج لديه تنطلق من المساءلة فوظيفة الكلام تساؤلية، ولا يقصد بالسؤال الاستفهام، بل إن السؤال دعوة إلى اتخاذ قرار، فالناس عندما يتكلمون يتساءلون ويستشكلون وهو ما يولد الحجاج الذي يفرز بدائل عديدة لمعالجة السؤال، ومن ثم ينجم عن ذلك مواجهة حجاجية تشتغل فيها آليات الإقناع والتأثير، كما أنه يولي أهمية كبرى للعلاقة بين الصريح والضمني، فالحجاج عنده هو: « دراسة العلاقة القائمة بين ظاهر الكلام وضمنيته» (صولة، 2002، ص. 37)، فالجملة لها معنى حرفي يؤدي إلى ظهور معنى ضمني في ضوء ما يمليه المقام، فالحجة عند مايير ما هي إلا جواب لسؤال مقدر(المغامسي، 2016، ص. 106).

وقد جعل جان بليز كريز الحجاج أقرب ما يكون إلى الاستدلال الذي يهدف إلى تقديم الأدلة والبراهين، فهو يركز على طرق بناء الحجج والإقناع معتمدا على الأسس المنطقية، ويولي أهمية خاصة لكيفية تفكير الأفراد واستخدامهم لأدوات التفكير لإقناع الآخرين، واهتم بتحليل العلاقة بين الجدل والحجج في الخطاب، وكيف يمكن استخدام المنطق، فهذه هي صورة الحجاج عن الغربيين وفي المطلب القادم سنتناول مفهوم الحجاج في الدراسات العربية.

المطلب الثاني: الحجاج في الدراسات العربية:

عند تتبع بدايات الحجاج عند العرب نجد أن جذوره المعتمدة على الإقناع والبرهان كانت موجودة منذ العصر الجاهلي، فالعرب تمارس الحجاج في جدالها ومناظراتها وأحكامها النقدية؛ فقد كانت الأسواق الأدبية تؤدي وظيفة كبيرة في الممارسات النقدية الممزوجة بالأنشطة الحجاجية، فالتأثر بالشعر إعجابا أو إعراضا كان يقوم على مبدأ الإحساس والتعليل، والشواهد على ذلك كثيرة في النقد العربي، أذكر منها على سبيل المثال قصة النابغة الذبياني مع حسان بن ثابت

رضي الله عنه، حين كانت تضرب له قبة حمراء من أدم في سوق عكاظ، ويعرض عليه الشعراء قصائدهم، وأنشده حسان بن ثابت:

لَنا الجَفَناتُ الغُرُّ يَلمَعنَ بالضُّحى

وأسيافُنا يَقطُرن من نجدةٍ دَما

وَلَدْنا بني العَنْقَاءِ وابنيْ مُحَـــرِّقٍ

فأكرِمْ بنا خالاً وأكرمْ بِنا ابنَما

فقال له النابغة: «أنت شاعر، ولكنك أقللت جفانك وأسيافك، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك « فنقد النابغة لحسان معلل بالحجج، فالعرب تستخدم جمع الكثرة في مقام الفخر لا جمع القلة، وتفخر بالآباء والأجداد لا بالأبناء (إبراهيم، 1419هـ، ص.35).

وفي عصر صدر الإسلام اصطدمت بلاغة العرب ببلاغة أعلى منها قدرا، وأراد الله –سبحانه– أن يظهر عجزهم بالمعجزة الخالدة، فكان القرآن الكريم وثيقة دالة على تواضع بلاغتهم أمام بلاغة خالقهم، فاستدعوا إلى المحاججة بالإتيان بمثله أو بمثل أقصر سورة منه، فانخرطوا في حجاج أوعر من المحاججة النقدية؛ لأنهم باتوا يواجهون ربا يقارعهم الحجة بالحجة (يطاوي، 2020، ص. 147).

ويمضي الحجاج جنبا إلى جنب مع البلاغة في خدمة الخطاب والتخاطب؛ فكان من أبرز المؤلفات العربية التي تؤكد التواشج بينهما (البيان والتبيين)، فالجاحظ يطرح سؤالا: ما البلاغة؟ فيجيب عن تساؤله بقوله: « وقال بعض أهل الهند: جماع البلاغة البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة، ثم قال: ومن البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها إذا كان الإفصاح أوعر طريقة، وربما كان الإضراب عنها صفحا أبلغ في الدرك وأحق بالظفر» (الجاحظ، 1405هـ، ج1، ص. 95).

وقد وردت في البلاغة العربية بعض المصطلحات التي يغلب عليها طابع البرهان والحجاج (المغامسي، 2016، ص.61)، فأبو هلال العسكري في كتابه (الصناعتين) كتب عن الحجاج تحت عنوان (في الاستشهاد والاحتجاج) وذكر أن هذا الجنس كثير في كلام القدماء والمحدثين، وأنه يجري مجرى التذييل لتوليد المعنى، وهو أن يأتي بمعنى ثم يؤكده بمعنى آخر يجري مجرى الاستشهاد على الأول، والحجة على صحته، وذكر شواهد على ذلك من النثر والشعر، ومنها قول الشاعر:

إنَّما يَعْشَقُ المنايا مِنَ الأقْـــ

ـــوامِ من كانَ عاشِقاً للمعالي

وكَذلِكَ أوَّلُ ما يُكـــــ

ـسَرُ مِنهُنَّ في الحربِ العَـوالي

(العسكري،1998، ص. 416)

وتحدث عبد القاهر الجرجاني عن نظرية النظم، وجعلها القطب الذي عليه المدار، والعمود الذي به الاستقلال، فجعل للنظم طاقة حجاجية تؤثر في المتلقي، وأن على المتكلم أن ينتقي من اللغة وأحوالها ومعاني النحو ما يتلاءم مع المقام، فيعرف لكل مقام موضعه، ويجيء به حيث ينبغي له.

كما تحدث عن الاستعارة والتمثيل والكناية، وأن الجميع يجمع على أن الكناية أبلغ من الإفصاح، والتعريض أوقع من التصريح، وأن للاستعارة مزية وفضلا، وأن المجاز أبلغ من الحقيقة، وأشار إلى أن المزية في تلك الأجناس في طريقة إثبات المعنى وتقريره، فالمزية في (رأيت أسدا) على (رأيت رجلا لا يتميز عن الأسد في شجاعته و جرأته) ليست في أن الأولى أفادت زيادة في مساواته بالأسد؛ بل لأنها أفادت تأكيدا وتشديدا وقوة في إثبات المساواة له فتأثير الاستعارة ليس في ذات المعنى بل في إيجابه والحكم به (الجرجاني، 2004، ص. 71).

ويتضح مما سبق أن البلاغة العربية اهتمت بالحجاج عن طريق مراعاة الكلام لمقتضى الحال، فكل خطاب لا بد أن يلائم المقام من خلال اختيار الألفاظ المناسبة والعلاقات التي تربط هذه الألفاظ، وملاءمة الخطاب للغرض المقصود ولأحوال السامعين، وتكمن أهمية الحجاج في اهتمامه بالتركيز على دراسة التقنيات والآليات التي يعتمد عليها المتكلم ويوظفها للتأثير في المتلقي حتى يحقق الخطاب وظيفته على أسس منهجية وعلمية دقيقة تسهم في تغيير شكل الخطاب وطرق الاستدلال، وهذا ما سنتناوله في دراسة الرد على اليهود خلال الصفحات القادمة.

المطلب الثالث: آليات الحجاج في الرد على بعض ادعاءات أهل الكتاب:

إن الواجب علينا كمسلمين الإيمان بجميع الرسل السابقين والكتب التي أنزلت عليهم؛ فهذا ركن من أركان الإيمان: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[البقرة:285] والإيمان بأن التوراة والإنجيل من الكتب السماوية التي أُنزلت على موسى وعيسى عليهما السلام–، وقد وصفهما الله تعالى بأنهما نور وهدى، فقال سبحانه : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[المائدة: 44] ففي هذه الآية ثناء على التوراة وعلى الحاكمين بها، ووصفها بالنزول للدلالة على أنها وحي من الله وعلو شأنها، فهي هدى ونور من الأحكام والشرائع التي يحكم بها العلماء والأنبياء (ابن عاشور،1984، ج3، ص.42)، وقال سبحانه: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: 46]، انتقالا لوصف حال النصارى، أي إن الإنجيل أيضا نور وهدى، وفي هذا بيان لنوع آخر من أنواع إعراض اليهود عن الأحكام التي كتبها الله عليهم.

إلا أن تلك الكتب قد جرى عليها تحريف وتغيير فكانوا يكتبون شيئا لم يأتهم من رسلهم؛ فترتب على ذلك استحقاقهم للويل والعقاب (الراجحي، 2021، ص. 96)، ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: 79]، وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 78] هذا التحريف أفقد هذين الكتابين قداستهما مما أدى إلى نسخهما بالقرآن الكريم وهيمنته على غيره من الكتب، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[المائدة: 48]، إن هيمنة القرآن الكريم على ما سبقه من الكتب تتمثل في كونه مصدقا لبعض ما جاء فيها من شرائع ومبطل لبعضها الآخر، ناسخ لكثير من أحكامها، فلا يجوز الحكم بغير ما في القرآن الكريم، وهذا النهي دلالة على نسخ الكتب السابقة (ابن عاشور،1984، ج7، ص.221، جماعة من العلماء، 2000، ص.384).

وقد وردت الإشارة في القرآن الكريم إلى ما لليهود والنصارى من مسالك خبيثة في الكيد للإسلام والمسلمين، وأكاذيب باطلة للتشكيك في الدين، ومن تلك الأكاذيب ادعاء اليهود بأنهم لن يعذبوا إلا أياما معدودة فقالوا: (لن تمسنا النار إلا أياما معدودة) في قوله تعالى: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران: 24] هذه الآية تعرض غرور اليهود واعتقادهم في أنفسهم أن إجرامهم وكبرهم غير مؤاخذين عليه، فحجتهم على أن عذابهم محصور في أيام معدودة نابع عن اعتقادهم الخاطئ فقوله: (وقالوا) جاء معطوفا على ما سبق متصلا به، فقولهم: (أياما معدودة) مع أن عدتها غير معلومة فإن ذلك على المعنى المعلوم عندهم بمدة عبادتهم للعجل، أي إنهم لم يعذبوا في النار إلا مدة عبادتهم للعجل (الفراء، 1955، ج1، ص. 50) مرتبط بقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾، وهذه الأقوال أصلا نابعة من اعتقادهم الخاطئ؛ لأن الأصل الصدق في القول حتى تقوم القرينة على أنه قول على خلاف الاعتقاد (ابن عاشور، 1984، ج1، ص.638)، إذن الحجة عند اليهود لهذا الادعاء الباطل أن معتقدهم يقودهم إلى هذا القول، حيث روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قدم المدينة واليهود تقول: (إنما هذه الدنيا سبعة آلاف، وإنما يعذب الناس في النار لكل ألف سنة من أيام الدنيا يوم واحد في النار من أيام الآخرة، وإنما هي سبعة أيام) (القرطبي، 2005، ص. 343)، وجاء الرد على هذه الحجة وإبطالها بقوله تعالى:(قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده) فاليهود لم يتخذوا عهدا عند الله على حصر عذابهم في أيام معدودة؛ لأنهم لو أخذوا عهدا من الله على هذا الادعاء لوجب حصر عذابهم على أيام معدودة؛ ولأن الله – جل في علاه – لا يخلف العهد، ولم يعطهم عهدا فهذه حجة قاطعة الدليل على بطلان قولهم، فجاء السلم الحجاجي في الرد على ادعائهم وفق قانون الترقي في الرد عليهم، وقوله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ توبيخ وتقريع لهم، وقوله: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ ﴾ إثبات بعد نفي، وهنا أدى الحجاج وظيفته في النص من خلال التصاعد في الرد على ادعاءات اليهود، فهنا « جواب عن قولهم المحكي، وإبطال على وجه أعم وأشمل لهم ولسائر الكفرة، كأنه قال: بل تمسكم و غيركم دهرا طويلا وزمانا مديدا —لا كما تزعمون– ويكون ثبوت الكلية كالبرهان على إبطال ذلك بجعله كبرى لصغرى سهلة الحصول» (الألوسي، 1998، ج1، ص.482).

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 111] تأصل الحسد في نفوس اليهود والنصارى ضد المسلمين فهم يتمنون أن يردوا المسلمين عن دينهم ويشككوهم في الدين ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ فقوله تعالى: (وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ) معطوفا على (وَدَّ كَثِيرٌ) ، وقوله﴿هُودًا﴾ أي: يهوديا «فحذف الياء الزائدة ورجع إلى الفعل من اليهودية» (الفراء،1955، ج1، ص. 73) وفي هذه الآية إيجاز حذف فالمراد: وقالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هودا، وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى، وبين الجملتين لف ونشر حيث جعل القولين قولاً واحداً اعتماداً وثقة بفهم السامع (الألوسي، 1998، ج1، ص. 565)، فالادعاء الباطل من أهل الكتاب داخل في أسلوب الاستثناء والحصر، فقد حصروا دخول الجنة على اليهود والنصارى تضليلا وتشكيكا في الآخر، وجاء الرد عليهم بالرد التصاعدي الذي يجعل الأثر في نفس السامع يزيد تدريجيا للوصول إلى الحجة الأقوى فكانت الحجة الأولى عليهم أن هذا الادعاء الباطل جاء نتيجة لأمانيهم؛ فالأماني جمع أمنية ومجيء الأمنية بصيغة الجمع للدلالة على تردد الأمنية في نفوسهم وتكرارها، وقيل إشعارا بأنها بلغت كل مبلغ؛ لأن الجمع يفيد زيادة الآحاد فيستعمل لمطلق الزيادة وهذا من بديع المجاز (الألوسي، 1998، ج1، ص.566).

والتصعد إلى الحجة الأقوى في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ البرهان الدليل الذي يحصل عنده اليقين، قال ابن جرير:» طلب الدليل هنا يقتضي إثبات النظر ويرد على من ينفيه» (الشوكاني، 1403هـ، ج1، ص. 130).

وطلب البرهان هنا لاستدراجهم حتى يعلموا أنهم غير صادقين حين يعجزون عن الإتيان بالبرهان؛ لأن كل اعتقاد لا يقوم على دليل هو اعتقاد كاذب، ولو كانوا صادقين لأحضروا الدليل، وعدم إحضار الدليل دليل على بطلان دعواهم (ابن عاشور، 1984، ج1، ص. 674)، ولإقامة الحجة الأقوى عليهم ونفي أن يكون لديهم برهان على صدق دعواهم، قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فكلمة بلى «يجاب بها المنفي لإثبات نقيض النفي وهو الاثبات»

(ابن عاشور، 1984، ج1، ص. 674)، فقانون النفي الحجاجي هنا أثبت النتيجة المرادة فكأن الحجة ألستم قادرين على إحضار برهان على صدق دعواكم؟ فكانت الإجابة (بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ ﴾ فالإجابة عن النفي المقدر في معنى الآية (ألستم قادرين) هو للإثبات على بطلان ادعائهم وقوله تعالى: ﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ تأكيد لهذا الإثبات لأن الجنة ليست محصورة على اليهود والنصارى كما يدعون.

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۝ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:72-75].

لايزال عجب اليهودبأنفسهم وتوهمهم أنهم قدوة لغيرهم من الأمم يجعلهم يستمرون في أكاذيبهم وادعاءاتهم ومكائدهم في التشكيك في دين محمد صلى الله عليه وسلم فأحبارهم يطلبون منهم الإيمان بمحمد أول النهار والكفر به في آخر النهار تضليلا وتشكيكا للمسلمين في دينهم، فحجتهم أن الدين الحق هو دينهم (وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ) فالحصر أدى وظيفة حجاجية في إثبات قولهم إن الدين الحق هو دينهم ،ولكن هذه الحجة نقضت بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ﴾ فالأمر هنا على سبيل الوجوب والتأكيد ب (إن) والتكرار لكلمة (هدى) وإضافتها إلى الله – جل في علاه – حجة قطعية في الرد على ادعائهم الباطل، وجاء الحجاج تصاعديا في التحذير من الانحراف عن الدين أو تأثر المسلمين بتلك الأفكار الخاطئة في قوله تعالى: (قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) حجة أقوى للرد عليهم.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ۚ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۞ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 157-158]

هذه الآية من جملة جناياتهم وأكاذيبهم حيث ادعوا أنهم قتلوا المسيح عيسى ابن مريم — عليه السلام – على سبيل التبجح والاستهزاء؛ لأنهم لا يقرون برسالته وقد يكون وصفهم له بأنه رسول الله بناء على قوله –عليه الصلاة والسلام – وإن لم يعتقدوا برسالته، وقولهم ﴿ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ ﴾ فيه كفر عظيم؛ لأن هذا القول إقرار منهم برغبتهم في قتله واجتهادهم في ذلك(الرازي، 1990، ج11، ص. 78، الألوسي، 1998، ج6، ص.5)، «و اعلم أنه تعالى لما حكى عن اليهود أنهم زعموا أنهم قتلوا عيسى – عليه السلام – فالله تعالى كذبهم في هذه الدعوى، وقال: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ « (الرازي، 1990، ج11، ص. 79)، وهذا حجة عليهم ودليل على نفي قولهم: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ﴾ فالنفي هنا للقتل والصلب المسندة للضمير العائد على عيسى عليه السلام ﴿وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أي ألقي شبهه على غيره، فالفعل (شبه) أسند للجار والمجرور فالمراد وقع تشبيه بين عيسى عليه السلام، وبين من صلب؛ لأنه لو جعل مسندا للمسيح لصار المسيح مشبهًا به وليس مشبهًا، وهذا خلاف المراد، وقيل إنه مسند إلى ضمير المقتول؛ لأن قوله ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ﴾ أي: شبه لهم من قتلوه بعيسى، وقوله تعالى ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ﴾ جملة خبرية مؤكدة للتردد والشك الصادر منهم، وقد أكد هذا الشك بنفي العلم الشامل ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ استثناء منقطع، لأن اتباع الظن ليس من العلم (الخفاجي، 1997، ج3، ص.391)، ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ فكلمة (يقينا) تركز على القطعية في نفي القتل، وتؤكد على الحقيقة التي لاريب فيها، وهي عدم قتل عيسى، ولما كان رفع عيسى عليه السلام إلى السماء من الأمور التي لا يرقى إليها العقل البشري، ختمت هذه الآية بصفتين لله تناسبان سياق الآية﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ فالعزة كمال القدرة، والحكمة كمال العلم، فإذا كان يتعذر على البشر هذا الأمر فإنه لا يتعذر على الله — جل في علاه– بقدرته وحكمته، وتأتي زيادة السلم الحجاجي تدريجيا ليؤدي وظيفته لإقناع السامعين في نفي ادعاءات و مزاعم اليهود، فقوله سبحانه ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ كلمة (إن) جاءت بمعنى (ما) النافية، أي: ما أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته، والضمير في (موته) إما يعود إلى اليهود والنصارى المكذبين به، أو يعود إلى عيسى عليه السلام بعد نزوله، والإيمان به في هاتين الحالتين لا يغني عنهم شيئا (الشوكاني، 1403هـ، ج1، ص.534)، فالحجج الواردة في هذا النص جاءت مرتبة بحسب درجة قوتها وفق السياق.

وقد أدت هذه الحجج وظيفتها في الإقناع بنفي ادعاءات اليهود ومزاعمهم بقتل عيسى عليه السلام واختلافهم في ذلك والتشكيك فيه.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ۖ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة: 18].

هذه الآية حكاية عما صدر منهم من دعاوى باطلة، فقد أثبت اليهود لأنفسهم ما أثبتوه لعزير، فقد قالوا: (عزير ابن الله) وأثبت النصارى لأنفسهم ما أثبتوه للمسيح، فقد قالوا: (المسيح ابن الله) و في الآية حذف المضاف وأبقى المضاف إليه (نحن أتباع أبناء الله)؛ وبالتالي أثبتوا حجتهم في أنهم أحباء الله بهذه الدعوى الباطلة (الخفاجي، 1997، ج2، ص.24)، فكان الرد على هذا الادعاء الباطل بقوله سبحانه مخاطبا محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ﴾ فأسلوب الاستفهام التوبيخي أدى وظيفته في توبيخهم؛ لأن حدوث العذاب لهم مع زعمهم بأنهم أحباء الله يدحض حجتهم؛ فحجتهم التي يعدونها صحيحة هي أنهم أحباء الله، والنقيض لهذه الحجة تعذيب الله لهم جرّاء ذنوبهم، هذا التناقض أدى

إلى استنتاج أن الله لا يحبهم؛ لأن المحب لا يعذب حبيبه، فالنتيجة هنا بطلان هذا الادعاء (بل أنتم بشر) أي من جنس البشر من غير مزية لكم تحاسبون على الخير والشر وتجازون: ﴿ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ فالتقابل هنا أدى وظيفته الإقناعية في أن المغفرة والعذاب مشروطة بإرادة الله سبحانه، وهذا يؤكد الحجة في نفي أكاذيبهم، فالمغفرة والعذاب ليست أمرا محصورا في أفعال أو شروط بشرية، بل هي خاضعة لمشيئة الله وحده.

قَالَ تعَالَى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: 64] تتناول هذه الآية قولا كاذبا من أقاويل اليهود، وتظهر جهلا عميقا في فهم اليهود وتفكيرهم وجرأتهم على الله، فكانت هذه الآية ردا قويا على شبهة أثارها اليهود، فقولهم (يد الله مغلولة) مجاز عن البخل، فاليد هنا بمعنى النعمة، أي إن نعمته مقبوضة عنا، فيكون مجازًا مرسلًا؛ لأن اليد هي سبب النعمة (الألوسي، 1998، ج6، ص. 264)، أو تكون كناية عن صفة البخل أي ممسكة عن الإنفاق والإسباغ علينا (الفراء، 1955، ج1، ص. 315)، وهذا الادعاء يعني أن الله بخيل أو فقير— تعالى علوا كبيرا– ، فقد قالوا: (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء) فجاء الرد عليهم من جنس مقالتهم فهي مشاكلة لقولهم (غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا) دعاء بغضب عليهم بسبب تماديهم في القول، وجاء اللفظان بصيغة الماضي (غلت — لعنوا) والفعل الماضي يدل على التحقق و الوقوع وملازمة الفعل لهم، وبناء الفعل لما لم يسم فاعله (لعنوا) قد يكون لتعدد الفاعل — والله أعلم — حيث إن اللعن عقاب لهم من الله، فالله يلعنهم، ويلعنهم اللاعنون، فكان التصعد الحجاجي في الرد عليهم بالجملة الاسمية التي تدل على الثبوت والاستمرارية (بل يداه مبسوطتان) فهذا رد قوي عليهم، فيد الله سبحانه لا تغل ولا تقيد بل هي دائما مبسوطة وقادرة في كل زمان ومكان، والتصعيد في الرد جاء في الجملة المؤكدة التي تحمل معنى الغضب عليهم (وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا) فأسلوب التوكيد هنا يحمل معنى التهديد والوعيد، وقوله تعالى ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ جاءت الاستعارة لتؤدي وظيفة حجاجية إقناعية، فقوله (كلما أوقدوا) تدل على تكرار الفعل منهم، وقد جعل الفتنة نارا على سبيل الاستعارة التصريحية، لا نار في الحقيقة، إنما شبه حال التهيؤ للحرب والاستعداد لها بحال من يوقد النار لحاجة بها فتنطفئ، وشبه انحلال عزمهم و سرعة ارتدادهم عنها و إحجامهم عنها بحال من انطفأت ناره (ابن عاشور، 1984، ج 3، ص 251) ، وهذا التعبير فيه دلالة على قدرة الله المطلقة في وقف الفتن وإطفاء مكائد اليهود، وختمت الآية بصفة متأصلة في نفوس اليهود، وهي الإفساد ﴿ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾، التعبير بالفعل المضارع يدل على الاستمرار التجددي، فإفسادهم مستمر متكرر لا يقتصر على فترة معينة (والله لا يحب المفسدين) فيها نفي وتوكيد على أن الله سبحانه لا يحب فئة المفسدين وهذا يحمل معنى التهديد الضمني، إذ إن حب الله للعباد هو سبب من أسباب النجاة، وعدم حب الله لهم يعني أنهم معرضون للعذاب، وهذا التذييل فيه زيادة السلم الحجاجي تصاعديا، فقد رتبت الحجج مما أدى أثره في نفس السامع.

قَالَ تعَالَى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ۖ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: 30–31]

جاءت هذه الآية في سياق تصحيح معتقدات أهل الكتاب الخاطئة، وهذا القول الشنيع افتراء على الله سبحانه — تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا –، فهذا القول الصادر منهم بادعاء الأبناء لله سبحانه قولا لا يستند إلى دليل، إنما هو مجرد قول «لا يعدو الوجود في اللسان وليس له ما يحققه في الواقع، وهذا كناية عن كونه كاذبا» (ابن عاشور، ج10، ص.168)، وهذ القول يضاهي ويشابه قول الذين كفروا من قبل، الذين ادعوا أن الملائكة بنات الله، وهذا طعن واستنكار في فهمهم وقولهم، والإشارة إلى الأقوام السابقين في هذا السياق حجة تاريخية؛ حيث إن هذا القول يتكرر عبر الأزمان، وهو قول ينم عن معتقدات خاطئة فاسدة صادرة من أحبارهم ورهبانهم، فقوله تعالى ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فيه زيادة تقرير لكفرهم بالله تعالى، وقوله تعالى: ﴿ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ معطوف على (رهبانهم) أي: اتخذوا أحبارهم ورهبانهم والمسيح ابن مريم أربابا من دون الله، والتقديم والتأخير هنا إشارة إلى أن هذا القول مختص بالنصارى، ونسبة المسيح إلى أمه خطاب عقلي، لأن هذا ينافي ربوبيته؛ وبالتالي إشارة إلى فساد عقولهم وتفكيرهم (العمادي، د.ت، ج4، ص. 60)، وقوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ أسلوب قصر، فجميع الأديان السماوية تدعوا إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وهذا فيه زيادة تشنيع وإنكار عليهم وإبطال لمعتقداتهم الفاسدة، حيث إن جميع الأنبياء والأحبار والرهبان مأمورين بعبادة الله وحده، فختم الآية بالتقديس والتنزيه له — سبحانه – عن الشركاء والأولاد، لا إله إلا هو ولا رب سواه (جماعة من العلماء، 2000، ص. 562).

وفي هذه الآية نجد أن الحجاج أدى وظيفته الإقناعية بنفي الولد والشريك لله سبحانه، حيث كان التدرج العقلي في نفي هذا الادعاء من خلال:

1. إثبات أن هذا القول لا يتعدى أفواههم إلى أرض الواقع.
2. أنهم يشابهون ويقلدون الأقوام السابقين.
3. أنهم اتخذوا الأحبار والرهبان أربابا من دون الله.

فكانت النتيجة الحتمية في الرد على ادعاءات أهل الكتاب حيال قولهم: إن الله — سبحانه — له ولد، بأن الله خصص وقصر الأمر على عبادته وحده، وأن لا إله غيره، وأنه منزه سبحانه عن الولد والشريك.

الخاتمة

بعد عرض موضوع آليات الحجاج البلاغي في الرد على بعض ادعاءات أهل الكتاب ودراسة أساليبه ومضامينه، يتضح لنا أن القرآن الكريم قدّم نموذجًا متكاملًا للحوار والجدل يتسم بالقوة والإقناع، جامعًا بين الحجة العقلية والأسلوب البلاغي الرفيع، وقد خرج البحث بالآتي:

- أظهر البحث كيف استخدم القرآن الكريم أساليب متنوعة تناسب طبيعة الادعاءات المثارة، فجاءت ردوده قائمة على المنطق والبيان والعدل، معتمدة على أسس عقلية ونقلية في آنٍ واحد، مما يبرز الإعجاز البلاغي للقرآن وقدرته على معالجة القضايا الجدلية بأسلوب راقٍ ومؤثر.
- أكد البحث أن بلاغة الحجاج في القرآن لم تكن مجرد وسيلة للرد على الافتراءات، بل أداة لتعليم المسلمين كيف يخاطبون الآخرين بالحكمة والموعظة الحسنة، مع الحفاظ على الأخلاقيات الإسلامية في الحوار والجدل.
- للحجاج أثر فعال في التوجيه والتأثير والإقناع، وقد أدى وظيفته في الرد على ادعاءات اليهود.
- تنوعت سلالم الحجاج في الآيات المستشهد بها بين السلم التصاعدي والسلم التنازلي بحسب الموقف.
- رتبت الحجج في الآيات بحسب قوتها وضعفها؛ لأن التدرج في الكلام هو أبرز ما يميز الخطاب الحجاجي.

وبذلك، يعزز هذا البحث فهمنا لعمق النص القرآني وثرائه البلاغي، ويبرز أهمية الاقتداء بالمنهج القرآني في الرد على الشبهات والقضايا المعاصرة بأسلوب حكيم ومقنع.

التوصيات

يوصي البحث بضرورة الاستمرار في دراسة الجوانب البلاغية والحجاجية في القرآن الكريم، لما تحمله من فوائد دعوية ومعرفية، ولإبراز المزيد من جوانب إعجاز القرآن الكريم البلاغية.

المراجع:

إبراهيم، مصطفى. (1419هـ). في النقد الأدبي القديم عند العرب. مكة للطباعة.

ابن عاشور، محمد بن الطاهر. (1984). التحرير والتنوير، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد. الدار التونسية للنشر

الآلوسي، محمود بن عبد الله. (1998). روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. تحقيق: محمد حسين العرب، دار الفكر

بو سلاح، فايزة. (2024). السلالم الحجاجية في القصص القرآن. [رسالة دكتوراه]، إشراف د. بن عيسى عبد الحليم، جامعة وهران، الجزائر.

الجاحظ، عمرو بن بحر. (1405هـ). البيان والتبيين. تحقيق: عبد السلام هارون، (ط5)، مكتبة الخانجي

الجرجاني، عبد القاهر، أبو بكر. (2004). دلائل الإعجاز. تحقيق: محمود شاكر، (ط5)، مكتبة الخانجي

جماعة من العلماء. (2000). المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير. تحقيق: صفي الرحمن المباركفوري، دار السلام للنشر والتوزيع

الحباشة، صابر. (2008). التداولية والحجاج مداخل ونصوص. صفحات للدراسة والنشر

الحجاج، سمية. (2004). الاستعارة في خطب علي بن أبي طالب السياسية. مقال بمجلة: *حوليات الجامعة التونسية*، (48)، كلية الآداب والفنون والإنسانيات. 243-275.

حمداوي، جميل، (2014). من الحجاج إلى البلاغة الجديدة. أفريقيا الشرق

الخالدي، صلاح عبد الفتاح. (2004). إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني. (ط2)، دار إعمار

الخفاجي، شهاب الدين. (1997). حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي. تحقيق: عبد الرزاق المهدي، (ط1)، دار الكتب العلمية: بيروت.

ديكرو، أزفالد. (2020). السلميات الحجاجية. (ترجمة أ.د أبو بكر العزاوي)، فاس

الراجحي، سليمان. (2021). التحريف في الديانة اليهودية والنصرانية. مجلة القلم، السنة الثامنة، (27) سبتمبر.

الرازي، محمد بن عمر، فخر الدين. (1990). التفسير الكبير، مفاتيح الغيب. دار الكتب العلمية

الشوكاني، محمد بن علي. (1403هـ). فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير. دار الفكر

صولة، عبد الله. (2001). الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، جامعة منوبة، منشورات كلية الآداب، بمنوبة.

طروس، محمد. (2005). النظرية الحجاجية. دار الثقافة

العزاوي، أبو بكر. (2006). اللغة والحجاج، الدار البيضاء

العسكري، الحسين بن عبد الله، أبو هلال. (1998). كتاب الصناعتين، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية

العمادي، أبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى. (د.ت). تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم. دار إحياء التراث العربي

الفراء، زكريا يحي بن زياد. (1955). معاني القرآن. تحقيق أحمد نجاتي، ومحمد النجار، مطبعة دار الكتب المصرية.

فرد، عارف هند يحاني. (2014). حوار الأديان في القرآن الكريم (إشكالية الحوار وآفاق التواصل).

القرطبي، محمد بن أحمد. (2005). الجامع لأحكام القرآن. تحقيق: عبد المجيد هنداوي، المكتبة العري

المغامسي، آمال يوسف. (2016). الحجاج في الحديث النبوي. الدار المتوسطية للنشر

يطاوي، محمد. (2020). أصول نظرية الحجاج عند العرب بين الممارسة والتنظير. *مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها*، (21).133–194.

Bu Silāḥ, Fāyizah. (2024). Al-Salālim al-Ḥijājīyah fī al-Qaṣaṣ al-Qur'ānī. [Doctoral Dissertation], Ishrāf al-Duktūr Bin 'Īsá 'Abd al-Ḥalīm, Jāmi'at Wahran, al-Jazā'ir.

Alhijaj, Sumayyah. (2004). Al-Isti'ārah fī Khuṭab 'Alī ibn Abī Ṭālib al-Siyāsīyah. (In Arabic). Ḥawliyāt al-Jāmi'ah al-Tūnisīyah, (48), Kulliyat al-Ādāb wa al-Funūn wa al-Insānīyāt.243- 275.

Al-Rajihi, Sulayman. (2021). Al-Taḥrīf fī al-Diyānah al-Yahūdīyah wa al-Naṣrānīyah. (In Arabic). *Majallat al-Qalam*, Al-Sanah al-Thāminah, (27), September.

Yatawi, Muhammad. (2020). Uṣūl Naẓarīyat al-Ḥijāj 'inda al-'Arab bayna al-Mumārasah wa al-Tanẓīr. (In Arabic). *Majallat Jāmi'at Umm al-Qurá li*'Ulūm al-Lughāt wa Ādābihā, (21).133194-.